obeikandl.com

3

الجزء الثالث

طريق المكافح من أجل الحرية

-١١-

لا أستطيع تحديد اللحظة التى سُيِّسْتُ فيها والتى عرفت فيها أننى سأمضى حياتى فى الكفاح من أجل الحرية. ولأن تكون إفريقيا فى جنوب إفريقيا يعنى أن تُسَيَّسْ منذ الميلاد. فالطفل الإفريقى يولد فى مستشفى للأفارقة فقط ويُحمل للمنزل فى حافلة الأفارقة ويعيش فى مناطق الأفارقة ويلتحق بمدارس الأفارقة، هذا إذا التحق بمدارس أصلا. وحينما يكبر يقوم بالأعمال التى يقوم بها الأفارقة فقط ويركب قطارات الأفارقة ويُؤمَر فى أى وقت من الليل والنهار ليبرز تصريحه وإذا لم يفعل يلقى به فى السجن. وتحد حياته القوانين واللوائح العنصرية التى تعوق نموه وتضيع إمكاناته وتشل حياته.

لم أتلق رؤيا أو أمر بلحظة الصدق، ولكنها كانت تراكمات مضطردة لآلاف الإهانات.. وآلاف اللحظات تلك هى التى ولدت فىَّ الغضب والتمرد والرغبة فى محاربة النظام ووجدت نفسى ببساطة أكرس نفسى لحركة تحرير شعبى ولم يكن بمقدورى غير ذلك.

تولى وولتر سيسولا توعيتى وتعليمى بحكمة. فقد كان قويا، متزناً،

عمليا ومتفانيا. وكان يعتقد أن المؤتمر الوطنى هو الوسيلة لتحقيق التغيير فى جنوب إفريقيا وكان المؤتمر يرحب بالجميع كما أن المؤتمر كان المنظمة التى ترى نفسها مظلة يلتجئ إليها كل شعب جنوب إفريقيا.

وفى عام ١٩٤١ عُقد ميثاق الأطلنطى الذى كان يتبنى عددا من المبادئ الديمقراطية. ورغم أن البعض فى الغرب كان يرى فيه وعودا فارغة فلم يكن الحال كذلك فى إفريقيا. وبإيحاء من ذلك الميثاق وضع المؤتمر الإفريقى ميثاقه الذى نادى فيه بالمواطنة الكاملة لكل الأفارقة وبإلغاء التشريعات العنصرية. فقد كان أملنا أن ترى الحكومة والفرد العادى أن المبادئ التى نحارب من أجلها هي نفسها التي يحاربون من أجلها في أوربا.

وكان منزل وولتر ملتقى أعضاء المؤتمر. وهناك فى عام ١٩٤٣ التقيت بأنتون ليمبيد الذى كان يحمل عدة شهادات عليا ويفكر بطريقة مبتكرة وكان أحد المحامين الأفارقة الذين يعدون على الأصابع. وكان يقول إن إفريقيا قارة الرجل الأسود وإن على الأفارقة أن يثبتوا ذاتهم ويستردوا مالهم. وكان يكره عقدة النقص السوداء ويهاجم عبادة

الغرب وتقديس أفكاره وكان يقول «إن لون بشرتي جميل كلون تربة إفريقيا الأم».

وكان والد ليمبيد فلاحا أميا من الزولو من إقليم ناتال. أما هو فقد درس في كلية آدم ليصبح مدرسا وقام بالتدريس عدة سنوات في ولاية أورانج الحرة وتعلم اللغة الأفريكانية وقد كتب في صحيفة أفريكانية قائلا: «إن التاريخ الحديث هو تاريخ القوميات. وقد تم اختبار القومية في معارك الشعوب وتحت نيران المعارك ووجد أنها الترياق الوحيد ضد الحكم الأجنبي والإمبريالية الحديثة. وهذا هو السبب في أن القوى الإمبريالية الكبيرة تحاول بكل قواها وبطريقة محمومة أن تحبط وتزيل كل الميول القومية بين رعاياها الأجانب وتصرف المبالغ الباهظة بسخاء على الدعاية ضد القومية ووصفها بالضيق واللا حضارية والشيطانية. وقد وقع البعض في مصيدة تلك الدعايات وأصبحوا أدوات للإمبريالية ونظيرا لخدمتهم فإن القوى الإمبريالية تغدق عليهم المديح وتصفهم بأنهم مثقفون وليبراليون وتقدميون وذوو أفق متسع».

وقد لقيت آراء ليمبيد صدى في نفسي. فقد كنت أنا تحت تأثير أبوة الاستعمار الإنجليزي، وتحت جاذبية أن ينظر إليّ البيض على أنني مثقف وتقدمي ومتحضر فقد كنت على وشك الانضمام للنخبة السوداء التي حاولت بريطانيا أن تزرعها في إفريقيا وكان ذلك ما أراده الجميع لي ابتداء من الحاكم وحتى سيدلسكي. ومثل ليمبيد بدأت أعتقد أن الترياق هو القومية الإفريقية المناضلة.

كان هناك شباب أخرون يفكرون على الخط نفسه وكنا نلتقى لمناقشة تلك الأفكار. كان هناك وولتر سيسولو وأوليفر تامبو ود. ليونيل ماجو مبوزى ووليام نوكولو وداشيد بوبابى. وكان الكثيرون من الشباب يشعرون بأن المؤتمر أصبح متحفا لنخبة إفريقية مميزة متعبة وغير مناضلة. وكان الإجماع أنه لابد من القيام بعمل واقترح د. ماجو مبوزى تكوين تنظيم للشباب كطريقة لإيقاد النار تحت قيادة المؤتمر.

وفى عام ١٩٤٣ ذهبت لمقابلة د. إكسوما وكان يمتلك منزلا فخما فى صوفيا تاون بالإضافة إلى عيادة جراحة ومزرعة صغيرة. وكان وقتها رئيسا للمؤتمر وقد أدى إليه خدمة جليلة بإيقاظه من حالة النعاس والتقاعس التى كان يعانيها تحت القيادة السابقة وأفاده إفادة مادية عظيمة كما أنه هو شخصيا كان يتمتع باحترام رؤساء القبائل والوزراء. وكان ذا مظهر شامخ واثق مطمئن لا يناسب مظهر قائد منظمة جماهيرية. وكان اهتمامه الأول عمله كطبيب كما أنه كان يريد الإبقاء على العلاقات التى كونها مع مؤسسات البيض ولم يكن يريد أن يُعرضها للخطر بالعمل السياسى.

وعند لقائنا أخبرناه بأننا ننوى إنشاء تنظيم للشباب وتنظيم حملة عمل نحشد بها مساندة الجماهير. وكنا قد أحضرنا معنا نسخة من مسودة دستور التنظيم والإعلام. ولكن د. إكسوما شعر بأن الدستور والتنظيم يهددانه وعارضهما بشدة.

وبعد ذلك بقليل شُكلت لجنة إقليمية لتنظيم الشباب بقيادة ويليام نكومو

ثم حضر أعضاؤها اجتماع المؤتمرالسنوى وقدموا اقتراحهم وقُبل الاقتراح.

وفى أول اجتماع أكد المتحدثون على إنجازات الإفريقيين وعلى القومية الإفريقية الوليدة وتمت انتخابات الإدارة وانتخبت أنا فى اللجنة التنفيذية.

كانت صيحة الحرب لدينا هى القومية الإفريقية وكانت عقيدتنا هى خلق أمة واحدة من القبائل العديدة وإسقاط سيادة البيض وإنشاء حكومة ديمقراطية. وكنا على حذر شديد من الشيوعية وقد مضى إعلاننا على أنه يجوز لنا أن نستعير من الأيديولوجيات الأجنبية ولكننا نرفض استيراد أيديولوجيات أجنبية بالجملة فى إفريقيا.

وكنت مرتبكا بشأن انضمامى للمنظمة وبشأن مدى التزامى السياسى فقد كانت لدىّ وظيفة وكنت منتسبا للجامعة ولم يكن عندى متسع من الوقت لشئ آخر. كما أنه كان يساورنى شعور عدم ثقة بوعيى وثقافتى السياسية بالمقارنة بوولتر وليمبيد ومداء كما أننا كنا مازلنا مختلفين حول إفريقية التنظيم وعما إذا كنا سنسمح لعناصر من البيض بالالتحاق وكنت فى ذلك الوقت معارضا لانضمام الشيوعيين والبيض.

وكان منزل سيسولو منزلا لى أيضا. وكانت زوجته ذات حكمة وحضور مدهش. وبينما كنت فى غرفة معيشتهم يوما التقيت بإيفيلين ميس زوجتى الأولى وكانت فتاة هادئة جميلة من الريف وكانت حينئذ تتدرب لتصبح ممرضة فى مستشفى جوهانسبرج العام لغير الأوروبيين.

كانت فتاة يتيمة من ترانسكى أُرسلت لتتم تعليمها الثانوى فى جوهانسبرج وكانت تمت بصلة قرابة لوالدة سيسولو.

وحدثت بيننا علاقة حب أعقبها زواج مدنى حيث لم يكن باستطاعتنا تحمل تكاليف زواج تقليدى. وواجهتنا مشكلة السكن. فبعد إقامة قصيرة مع أخيها فى شرق أورلاندو أقمنا مع أختها فى منطقة المناجم حيث كان زوجها يعمل كاتبا.

-١٢-

فى عام ١٩٤٦ وقعت سلسلة أحداث حاسمة شكلت تطور الصراع واتجاهه. فقد حدث أن قام ٧٠.٠٠٠ من عمال المناجم بإضراب. وكان اتحاد عمال المناجم الإفريقية قد أقيم بناء على مبادرة من چيه. بى. ماركس، ودان تلوم، وجود رداييى وعدد من عناصر المؤتمر النشيطة وكان معظم عمال مناجم السخرة وعددهم حوالى ٤٠٠.٠٠٠ لا يزيد أجرهم على ٢ شلن فى اليوم. للفرد. وقد حاولت قيادة الاتحاد أن تضغط على غرفة المناجم لتحديد أجر أدنى يقدر بعشرة شلنات فى اليوم ومسكن عائلى وإجازة أسبوعين بأجر ولكن الغرفة تجاهلت هذه المطالب.

وفيما يعتبر من أكبر العمليات فى جنوب إفريقيا فقد أضرب عمال المناجم لمدة أسبوع وأبقوا على تضامنهم. وكان انتقام الدولة لا هوادة فيه فاعتُقل القادة وحوصرت المجمعات السكنية ونُهبت مكاتب الاتحاد وقمعت الشرطة مسيرة احتجاج وقُتِل اثنى عشر عاملاً.

وكان ماركس -وهو عضو قديم فى المؤتمر والحزب الشيوعى- رئيسا للاتحاد. وكان من مواليد الترنسفال من أصل مختلط. ذا شخصية كاريزمية وكنت أنتقل معه أثناء الإضراب بين المناجم مخاطبين العمال ومخططين لاستراتيجية العمل. وقد أعجبنى تنظيم الاتحاد وقدرته على التحكم فى الأعضاء حتى فى مواجهة تلك المعارضة الوحشية. وانتصرت الدولة وقُمع الإضراب وسُحق الاتحاد. وكان الإضراب بداية علاقتى الوثيقة بماركس وكنت أزوره فى منزله وقد ناقشنا معارضتى للشيوعية بالتفصيل وكان يشعر بأنه من الطبيعى لشاب مثلى أن يعتنق القومية وأن آرائى ستتسع حينما أكبر وأكتسب خبرة أكثر.

وناقشت القضايا نفسها مع موسيس كوتانى ويوسف دادوو وكانا يعتقدان أن الشيوعية يمكن أن تُطبق لتناسب الموقف الإفريقى.

وبعد الإضراب اعتُقل اثنان وخمسون شخصا من بينهم كوتانى وماركس وعديد من الشيوعيين وقُدموا للمحاكمة بتهمة التحريض على الفتنة والعصيان.

وأجبرتنى حادثة أخرى فى العام نفسه على تغيير معالجتى للعمل السياسى. ففى عام ١٩٤٦ أصدرت حكومة سماتس قانونا يقيد حرية حركة الهنود والأماكن التى يمكنهم السكنى والتجارة فيها ويحدد بشدة حقوقهم فى التملك. ومقابل ذلك منحوا حق التمثيل فى البرلمان بواسطة ممثلين بيض. وانتقد د. دادوو تلك القيود بعنف ووصف عرض التمثيل البرلمانى بأنه عرض زائف لتمثيل خادع واشتد غضب مجتمع

الهنود وبدأوا حملة عصيان مدني مدتها سنتان، خلّفت فينا الحملة أثرا قويا لحسن تنظيمها وشدة الإخلاص لها. ولمدة عامين علق الناس فيهما حياتهم ليخوضوا المعركة ونظموا المسيرات واحتلوا الأراضي المخصصة للبيض وطوقوها وأرسل ما لا يقل عن ألفي شخص للسجن. فيما تلقى د. نيكر ودادوو أحكاماً بالأشغال الشاقة مدتها ستة أشهر. وقد شلت الحكومة حركة العصيان بالقوانين الصارمة ووسائل التخويف لكننا نحن في تنظيم الشباب شهدنا المواطنين الهنود يسجلون احتجاجا غير عادي ضد القمع العنصري بطريقة لم يتبعها الأفارقة ولا المؤتمر. فقد علق إسماعيل مير وچيه. إن سينج دراستهما وودعا أسرتيهما وذهبا إلى المعتقل وفعل مثلهما أحمد كاثرادا الذي كان مازال طالبا في المرحلة الثانوية.

أصبحت الحملة الهندية مثالاً لنا في تنظيم الشباب لنوع الاحتجاج الذي كنا ندعو إليه وغرست فينا روح التحدي والراديكالية وكسرت حاجز الخوف من المعتقل.

وفي بداية عام ١٩٤٦ انتقلت وايڤيلين إلى منزل من منازل البلدية في أورلاندو الشرقية وبعد ذلك إلى منزل أكبر قليلا في أورلاندو الغربية وهي منطقة متربة منازلها مثل الصناديق وأصبحت فيما بعد جزءا من سويتو الكبرى. وكان إيجار المنزل سبعة عشر شلنا وست بنسات في الشهر وكان مطابقا لمئات أخرى أقيمت على رقع صغيرة من الأرض غير الممهدة وكانت أسقفها من الصفيح وأرضياتها من الإسمنت. ولم تكن الكهرباء قد دخلت بعد. وكان منزلي رغم تواضعه الشديد أول

منزل لى وكنت فخورا به. وتلك السنة ولد أول أولادى ماديبا شيمبكل وكنا نناديه بثمبى. وكنا أيضا نتلقى الضيوف والنزلاء فإن جميع أعضاء الأسرة طبقا لتقاليدنا لهم حق الضيافة عند أى فرد من أفراد الأسرة. وعلى ذلك فقد كان منزلى دائماً ممتلئاً بالضيوف.

وفى بداية عام ١٩٤٧ أنهيت فترة تدريبى فى المكتب وقررت أن أتفرغ لكى أحصل على درجتى الجامعية فى القانون لكى أفتح مكتبا خاصا بى. وتقدمت إلى صندوق الخدمات بطلب قرض ٢٥٠ جنيها إسترلينيا لتغطية نفقات إتمام دراستى ومنحت ١٥٠ جنيها فقط. وبعد ثلاثة شهور تقدمت بطلب آخر ومنحت بقية المبلغ حيث إنه كانت زوجتى على وشك القيام بإجازة وضع تفقد أثناءها راتبها. وحدث بعد ذلك أن وُلدت لنا طفلة ضعيفة مريضة توفيت وعمرها تسعة أشهر.

وعقب مرض مفاجئ توفى ليمبيد وكان لوفاته أثر عميق على الكثيرين وأنهك الحزن سيسولا خاصة. وكان موته انتكاسة للحركة حيث كان ليمبيد نبعا للأفكار التى اجتذبت الكثيرين للمنظمة.

وخلف ليمبيد بيتر مدا الذى جعلت منه طريقته التحليلية وقدرته على التعبير ببساطة ووضوح وخبرته التكتيكية سياسيا ممتازا وقائداً مرموقا للتنظيم. وكان مدا يؤمن بأن تنظيم الشباب يجب أن يكون جماعة ضغط وجناح نضال يعمل من خلال إطار المؤتمر ككل حتى يدفع بالمؤتمر إلى عهد جديد.

وأسس مدا فرعا لتنظيم الشباب فى فورت هير تحت قيادة زد. كيه.

ماثيوس وجود فري بيچيه وقاما بتجنيد عدد من الطلبة المرموقين الذين أتوا للتنظيم بدماء وأفكار جديدة. ومن بين هؤلاء چو ابن ماثيوس وروبرت سوبوكوى الذى كان خطيبا لامعا ومفكرا واضحا. وكنت مازلت من بين أعضاء التنظيم الذين كانت تملؤهم الشكوك من اليسار الأبيض وكنت أعارض الحملات المشتركة للمؤتمر والحزب الشيوعى وأعتقد أن القومية الإفريقية الخالصة هى التى ستحررنا وليست الماركسية أو التعددية الإثنية وكنت أشعر نحو الهنود بنفس شعورى نحو الشيوعيين.

وفى عام ١٩٤٧ انتخبت عضوا فى اللجنة المركزية للمؤتمر الوطنى الإفريقى عن إقليم الترانسڤال وعملت تحت إمرة رئيسه راموهانو وكان ذلك أول منصب لى فى المؤتمر وكان علامة فى تاريخ التزامى تجاهه. ومنذ ذلك الحين بدأت أتوحد قلبا وقالبا مع المؤتمر ككل بطموحاته ونجاحاته وفشله.

وفى عام ١٩٤٧ وقع د.إكسوما رئيس المؤتمر ود. دادو رئيس المؤتمر الهندى الترانسڤالى ود. نيكر رئيس المؤتمر الهندى الناتالى ميثاقا للعمل الجماعى عرف بميثاق الأطباء للعمل ضد العدو المشترك وكانت تلك خطوة هامة لتوحيد الحركات الهندية والإفريقية وفيما بعد لحقت بهم منظمة الشعب الإفريقى وهى منظمة الملونين.

-١٣-

رغم أنه لم يكن للأفارقة حق التصويت فلم يعن ذلك أننا لم نكن نهتم

بمن يكسب الانتخابات. وكان الحزب المتحد بقيادة سماتس يتمتع باحترام دولى لتأييده الحلفاء فى الحرب على خلاف حزب القوميين الذى أيد النازية. وأدار حزب القوميين حملته حول الخطر الأسود وكان لهم شعاران: «فليبق الزنوج فى أماكنهم» و«فليرحل الصعاليك» أى الهنود. وكان القوميون بقيادة دانيال مالان تحفزهم مرارتهم ضد الإنجليز الذين عاملوهم باحتقار لعشرات السنين وضد الأفارقة الذين كانوا يرون أنهم يهددون نقاء الحضارة الأفريكانية وازدهارها. ورغم عدم ولاء الأفارقة لسماتس فقد كان ولاؤنا أقل للقوميين وعرفت دعاية مالان الانتخابية بالأبارتايد وكان لفظاً مستحدثا رغم قدم الفكرة ذاتها. وكانت الكلمة حرفيا تعنى الفصل، أى أنه ما ظل واقعا كان سيصبح شرعيا طبقا للقانون وأن التفرقة ستصبح نظاما متوحداً قوياً شيطانى التفاصيل لا فرار من قبضته. وكانت افتراضية الأبارتايد تقوم على فكرة سمو الجنس الأبيض على الأفارقة والملونين والهنود. وكانت وظيفته تنحصر فى ترسيخ السيادة البيضاء إلى الأبد أو كما صاغ ذلك القوميون «إن الرجل الأبيض يجب أن يظل سيدا» بكل ما يحمله لفظ السيادة من معانى العنف. وكانت الكنيسة الإصلاحية الهولندية تؤازر تلك السياسة وقد أمدتها بالأساس العقائدى القائم على الأسطورة التى مفادها «أن الأفريكانيين هم شعب الله المختار وأن السود نوع تابع».

وكان انتصار القوميين نهاية لسيادة الإنجليز على الأفريكان. وكانت شعارات القوميين وهى «شعبنا ولغتنا وأرضنا» تلخص مهمتهم

ورسالتهم.

وحينما انتصر القوميون صدمت صدمة أذهلتنى لكن أوليفر أمبو علق قائلا: «إننى راض عن ذلك ولا أعرف لماذا. فالآن نحن نعرف تماما أعداءنا ونعرف أين نقف». وأعلن مالان فى خطاب انتصاره قائلاً «والآن فإن جنوب إفريقيا قد عادت لنا».

وفى العام نفسه جدد تنظيم الشباب سياسته فى وثيقة كتبها مدا وأصدرتها اللجنة المركزية التنفيذية وكانت صيحة تحث كل الشباب الوطنى على الاتحاد ليُسقط السيادة البيضاء ورفضنا الفكر الشيوعى القائل بأن الإفريقيين مضطهدون كطبقة اجتماعية وليس كجنس. وأضفنا أنه لابد من خلق حركة تحرر قوى تحت لواء القومية الإفريقية يقودها الإفريقيون أنفسهم ونادينا بإعادة توزيع الأراضى على أسس أكثر عدالة وإلغاء الحواجز القائمة على أساس لون البشرة كما نادينا بالحاجة إلى تعليم مجانى وإلزامى.

وكنت حينئذ متعاطفا مع التيار الأكثر ثورية من التيارات القومية. فقد كان غضبى منصبا على الرجل الأبيض وليس على التفرقة فى حد ذاتها. وكنت على استعداد لتقبل الهنود والملونين على أن يتقبلوا هم سياستنا. ولكن اهتماماتهم لم تكن هى اهتماماتنا وكنت متشككا فى قدرتهم على احتضان قضيتنا عن صدق.

وفى خطوات متلاحقة بدأ مالان تنفيذ برنامجه الكريه، فأعلنت الحكومة عزمها على تقليص حركة الاتحادات، وإلغاء الحقوق الدستورية

المحدودة للهنود والملونين والأفارقة. وصدر قانون منع الزيجات المختلطة أعقبه قانون الفجور الذى يجرم أى اتصال جنسى بين البيض والأجناس الأخرى. ثم صدر قانون تصنيف السكان الذى صنف سكان جنوب إفريقيا على أساس عرقى قائم على اللون، ثم قانون مناطق الجماعات الذى هو لب الأبارتايد والذى طالب بمناطق مدنية لكل مجموعة عرقية. وهكذا فبينما كان البيض يستولون على الأراضى بالقوة فى الماضى أصبحوا الآن يفعلون ذلك بقوة القانون. وفى ظل ذلك اتخذ تنظيم الشباب والمؤتمر خطوات لتعبئة الجماهير.

فى الاجتماع السنوى للمؤتمر تم تبنى خطة عمل التنظيم. ودعا المؤتمر إلى المقاطعة والإضرابات والبقاء فى المنازل والمقاومة السلبية ومظاهرات الاحتجاج وغيرها من أشكال العمل الجماهيرى وذلك رغم وجود معارضة من داخل المؤتمر وخاصة من د. إكسوما الذى كان يرى فى استراتيجيتنا خطرا قد يعطى الحكومة فرصة لسحقنا كما أنه كان غير مستعد لأن يعرض منصبه وعمله كطبيب للخطر. فأعطيناه إنذارا بأننا لن نصوت فى صالحه فى انتخابات رئاسة المؤتمر إن لم يوافق على خطتنا فاتهمنا بالغرور ومحاولة ابتزازه وطردنا من منزله.

وحاولنا فى ديسمبر التالى خلع إكسوما وإحلال د. موروكا مكانه رغم عضوية الأخير فى منظمة الأفارقة التى كانت تسودها العناصر التروتسكية إلا أنه كان نشيطا وكان يؤيد برنامجنا وكان طبيبا مثقفا من أكثر السود ثراء. وفى انتخابات المؤتمر هُزم إكسوما وانتخب موروكا رئيسا عاما وسيسولا سكرتيرا عاما وتامبو عضوا فى اللجنة

التنفيذية.

وكان البرنامج الجديد قد نادى أيضا بتحديد يوم للتوقف عن العمل على المستوى القومى احتجاجا على سياسات الحكومة العنصرية. وبذلك نجحنا نحن أعضاء تنظيم الشباب فى توجيه المؤتمر نحو طريق أكثر راديكالية وثورية.

وكنت قد انتقلت للعمل فى مكتب جديد للمحاماة وكان عملى يستغرق كل وقتى ورغم ليبرالية أصحاب العمل فقد كانوا يريدون منى أن أنسى السياسة.

جاشت روح العمل الجماهيرى، لكن شكوكى حول الهنود والشيوعيين استمرت. وقد اجتذب مؤتمر الدفاع عن حرية الكلام الذى نظمه مؤتمر الترانسفال ومجلس الترانسفال الهندى ومنظمة الشعب الإفريقى واللجنة الإقليمية للحزب الشيوعى فى جوهانسبرج فى مارس عام ١٩٥٠ عشرة آلاف شخص وترأسه د. موروكا ونجح المؤتمر ولكن حذرى استمر حيث إن المنظم الأول للمؤتمر كان الحزب الشيوعى.

وبمبادرة من الحزب الشيوعى والمجلس الهندى قرر المؤتمر تنظيم إضراب لمدة يوم واحد هو أول مايو يسمى يوم الحرية وينادى بإلغاء قوانين التصاريح وكل تشريعات التفرقة ورغم مساندتى للأهداف فقد اعتقدت أن الشيوعيين يريدون أن يطفئوا وهج يوم الاحتجاج الذى اقترحه المؤتمر الإفريقى ولذا عارضت الإضراب.

وكان أحمد كاثرادا حينئذ فى الحادية والعشرين من عمره وكان

عضوا هاما فى مجلس الشباب الهندى للترانسفال وقد سمع عن معارضتى للإضراب. وحينما قابلنى اتهمنى أنا وتنظيم الشباب بأننا لا نريد العمل مع الهنود والملونين رغم أنه واثق من أن جماهير الأفارقة تؤيد الإضراب.

ونفّذ إضراب يوم الحرية دون تأييد رسمى من المؤتمر. وكانت الحكومة قد حظرت كل الاجتماعات والتجمعات ترقبا له. وقد بقى أكثر من ثلثى العمال الأفارقة فى منازلهم ذلك اليوم. وبينما كنت وولتر فى غرب أورلاندو نرقب مسيرات الاحتجاج والتجمعات إذا بالشرطة تطلق النار فى اتجاهنا.

وانبطحنا أرضا ثم سارعنا بالاختفاء فى منزل للممرضات حيث سمعنا الطلقات النارية التى نتج عنها وفاة ثمانية عشر إفريقيا وجرح العديد.

وبعد أسابيع أصدر القوميون قانون حظر الشيوعية وتجريم الحزب الشيوعى واعتبار عضويته جريمة يعاقب عليها بالسجن عشر سنوات. وكان نص ذلك القانون يرى أن اعتناق أى مذهب يشجع أى تغيير سياسى أو صناعى أو اقتصادى أو اجتماعى جريمة. وعلى ذلك فقد سمح ذلك القانون للحكومة أن تحظر أية منظمة وأن تقيد أى فرد معارض لسياستها.

واجتمع المؤتمر والمجلس الهندى ومنظمة الشعب الإفريقى لمناقشة تلك الإجراءات وأعلن دادوو مع آخرين أنه من الغباء أن نسمح لخلافات

قديمة أن تقف فى طريق تكوين جبهة متحدة ضد الحكومة. وفى خطابى قلت إن حظر أية منظمة هو حظر لجميع المنظمات. وقررنا تخصيص يوم ٢٦ يونيو يوما قوميا للاحتجاج على مقتل ثمانية عشر إفريقيا فى أول مايو.

وكنت فى بداية ذلك العام قد حللت محل د.إكسوما الذى كان قد استقال لمرضه من عضوية اللجنة المركزية للمؤتمر وأصبحت فى مركز من مراكز القوة التى طالما ثرت عليها.

كانت الأعمال الجماهيرية فى جنوب إفريقيا محفوفة بالأخطار حيث كان الإضراب بالنسبة للإفريقى جنحة جنائية، وحيث كانت حقوق الكلام والحركة مقيدة بلا هوادة. وكان الإضراب السياسى أشد مخاطرة من الإضراب الاقتصادى وكان يوم الاحتجاج إضراباً سياسياً.

وفى سبيل الإعداد ليوم ٢٦ يونيو أخذ وولتر يجوب أنحاء البلاد للتشاور مع القادة المحليين وفى غيابه توليت مسئولية مكتب المؤتمر وأخذت بمحور العمل القومى المعقد والتحاور مع القادة المختلفين فى جميع أنحاء البلاد عن طريق الهاتف، وكان التخطيط متسرعا.

كان يوم الاحتجاج أول محاولة للمؤتمر لتنفيذ إضراب سياسى على مستوى قومى ولاقى نجاحا معتدلاً. ففى المدن بقى معظم العمال الأفارقة فى المنازل وظلت متاجر السود مغلقة. كما حدثت مظاهرات فى أماكن أخرى كتبت عنها الصحف فى العناوين الرئيسية. وارتفعت

معنوياتنا وأرسلنا إنذارا لحكومة مالان مقتضاه أننا لن نبقى سلبيين فى مواجهة الأبارتايد. وظل يوم ٢٦ يونيو علامة مميزة فى تاريخ الكفاح ويحتفى به كيوم الحرية. وكانت تلك أول مرة أقوم بدور هام في حملة قومية وشعرت بالبهجة النابعة من النجاح فى المعركة.

وفى تلك الأثناء ولد ابنى الثانى وكنت مع إيفيلين حينما خرج للحياة لكن لم أمكث سوى فترة وجيزة وقد سمى ماكجاثو لوانيكا على اسم بطل إفريقى مكافح من زامبيا.

وفى تلك الأيام كانت تعوزنى الثقة حيال ما أنا ضده وما أنا معه. فقد كانت معارضتى الطويلة للشيوعية قد بدأت تضعف. وكان موسيس كوتانى كثيرا ما يأتى إلى منزلى ليلا ويسألنى عن سبب عدائى ولم تكن لدى إجابة. كان الكثيرون من أعضاء الحزب أصدقاء لى وكانوا متفانين فى القضية. أما د. دادوو أحد أعضاء المقاومة عام ١٩٤٦ فقد كان ماركسيا مرموقا وكان دوره كمدافع عن حقوق الإنسان قد جعل منه بطلا لكل المجموعات. ورغم ذلك فلم أكف عن مساءلة الأسس الفلسفية للماركسية ولم أكن أعلم الكثير عنها. وعلى ذلك حصلت على الأعمال الكاملة لماركس وإنجلز ولينين وستالين وماوتسى تونج وغيرهم. وأجهدنى كتاب رأس المال بينما حفزنى المانيفستو الشيوعى ولاقت فكرة مجتمع بلا طبقات من نفسى استجابة قوية إذ وجدتها تشابه الحضارة الإفريقية حيث يتقاسم الناس الحياة مشاعا. وأقنعتنى مقولة ماركس الأساسية التى وجدت فيها قاعدة ذهبية والتى تقول «لكل طبقا لقدراته لكل طبقا لاحتياجاته». وبدت الديالكتية المادية

وكأنها تلقى ضوءا على الاضطهاد العرقى، وأيضا كآلية يمكن توظيفها لإنهائه وساعدتنى على رؤية الموقف من زاوية غير زاوية العلاقة بين السود والبيض لأنه إذا كان لحركتنا أن تنجح فلابد لها أن تتسامى على اللون. كما جذبتنى الأسس العلمية للدياليكتيك المادى وتحليلها للاقتصاد وبدت لى الفكرة التى تقول إن قيمة السلع تقدر على أساس العمل المبذول لإنتاجها مناسبة بصفة خاصة لجنوب إفريقيا إذ إن الطبقة الحاكمة كانت تدفع للعمال الأفارقة أجورا دنيا وتضيف قيمة الأجور الحقيقية إلى تكاليف السلعة وتحتفظ لنفسها بالفرق. وكان لدعوة ماركس للعمل الثورى وقع الموسيقى على أذنى. وخلال قراءتى للأعمال الماركسية وجدت معلومات كثيرة لها علاقة بنوع المشاكل التى تواجه السياسى الممارس بالإضافة إلى أن الماركسيين اهتموا بحركات التحرر القومية وكفاح الشعوب ضد الاستعمار وكان ذلك سببا أخر لتغيير نظرتى للشيوعيين وقبولى ترحيب المؤتمر بهم بين صفوفه. ولم يكن علىَّ أن أعتنق الشيوعية لأعمل معهم ووجدت أن القومى الإفريقى والقومى الشيوعى بينهما عوامل مشتركة أكثر من اختلافات.

-١٤-

فى عام ١٩٥٠ أصدرت الحكومة قرارين يعتبران حجر الزاوية فى الأبارتايد وهما قانون السكان والتسجيل وقانون المناطق الجماعية أو مناطق المجموعات وقد سمح القانون الأول بتصنيف السكان على أساس عرقى وبطريقة عشوائية مما نتج عنه أحيانا التفريق بين

أعضاء الأسرة الواحدة اعتمادا على لون البشرة وتجاعيد الشعر وسمك الشفتين. أما قانون المناطق فيعتبر أساس الأبارتايد السكانى وبناء عليه فإذا أراد البيض تملك الأراضى أو المساكن التى يمتلكها الأفارقة أو الهنود فما عليهم إلا أن يعلنوا المنطقة بيضاء. كما أنه بناء على ذلك القانون بدأت حركة نقل جماعية للسكان بالقوة فى حالة قرب المناطق التى يعيش فيها الأفارقة من مناطق سكان البيض.

وكانت صوفيا تاون على رأس تلك القائمة وهى منطقة حية كان يسكنها أكثر من خمسين ألف إفريقى وكانت إحدى أقدم المواطن الإفريقية فى جوهانسبرج وكانت تفيض حياة رغم فقرها كما كانت تحتضن كثيرا مما هو جديد وقيّم فى حياة الأفارقة وحضارتهم وكان لها على صغرها معنى رمزى للأفارقة يفوق حجمها.

وأصدرت الحكومة أيضاً قرارين أُلغى بمقتضاهما حق التمثيل النيابى بالنسبة للملونين كما ألغى المجلس النيابى للبانتو وهو منتدى إفريقى له دور التمثيل غير المباشر وأحلت الحكومة محله نظاما هرميا من رؤساء القبائل الذين تعينهم الحكومة على أساس إثنى وكان الهدف هو إعادة السلطة للرؤساء المحافظين وتقوية الاختلافات الإثنية التى كانت بادئة فى الزوال. ونتيجة لذلك نظم الملونون مظاهرة ضد القانون الخاص بهم فى كيب تاون وإضراب ظلت على إثره المتاجر والمدارس مغلقة. وعملا بروح المقاومة المشتركة بين الطوائف الثلاث طرح سيسولو فكرة حملة للعصيان المدنى.

ولقيت الفكرة منا قبولا ولكنى وبصفتى حينئذ رئيسا لتنظيم الشباب كنت أرى أن تقتصر الحملة على الأفارقة فقد كنت مازلت أخشى تأثير الهنود. ولكن رأيى هُزِم فى الاقتراع وأخيرا قبلت برأى الأغلبية. ووجه القادة نداء للحكومة لإلغاء القوانين الإثنية والعنصرية ثم قرر المجلس الذى تم تشكيله من هؤلاء القادة أن يقوم المؤتمر بتنظيم مظاهرات يوم ٦أبريل عام ١٩٥٢ كمقدمة لبدء حركة العصيان. وكان ذلك هو يوم احتفال البيض بالعيد الثلاثمائة لوصول جان فان رايبك إلى الكيب وكان يحتفون به على أنه يوم إنشاء دولتهم بينما يلعنه الأفارقة كبداية ثلاثمائة عام من الاستعباد. وصاغ المؤتمر خطابا لرئيس الوزراء يعلمه بالقرارات وينصحه بإلغاء القوانين وكنا نحتاج إلى توقيع د.موروكا على الخطاب لأنه كان موجها باسمه وأوكلت لى مهمة السفر إلى ولاية أورانج الحرة للحصول على التوقيع. وسافرت إلى هناك بالسيارة فقد كنت قد حصلت على رخصة قيادة وكان ذلك شيئاً غير عادى بالنسبة للأفارقة. وحدثت على الطريق لى حادثة تورطت فيها مع الشرطة وسببت تأخيرى لكنها انتهت بسلام. وحصلت على توقيع د.موروكا وأُرسِل الخطاب إلى رئيس الوزراء الذى أجاب فى رسالة موقعة من سكرتيره الخاص أنه من حق البيض أن يتخذوا من الإجراءات ما يضمن بقاء هويتهم كقومية منفصلة وأنهى الرد محذرا من أنه إذا ما اتبعنا إجراءاتنا فإن الدولة ستتخذ جميع الوسائل المتاحة لها لإخماد أى اضطرابات. وقد اعتبرنا رد مالان القاطع إعلانا للحرب ولم يكن أمامنا سوى اللجوء للعصيان المدنى وأخذنا نعد

العدة للعمل الجماهيرى. وكان من المهمات الأساسية تجنيد وتدريب متطوعين للحملة لضمان إنجاحها. وبدأت التجمعات والتظاهرات المبدئية وخطبتُ فى بعضها مبينا أن التطوع واجب صعب وخطر وأن السلطات ستعمل على إرهاب وسجن ومهاجمة المتطوعين وأنهم لابد لهم أن يردوا على العنف بعدم استعمال العنف وأن يحافظوا على النظام مهما كلف الأمر.

وكان الاتفاق قد تم على قيادة الحملة طبقا لمبادئ غاندى التى تسعى إلى الكسب عن طريق تغيير المعتقدات وأيد ذلك نجل المهاتما مانيلا غاندى رئيس تحرير صحيفة الرأى الهندى وعضو المجلس الهندى البارز والذى كان هو شخصيا تجسيدا لمبادئ والده.

وكان آخرون وأنا من بينهم يرون أننا لا يجوز أن نتبنى مبادئ معينة بل نضع تكتيكا ومنهجا يناسب الظروف وبما أن الدولة قوية فإن استعمال العنف سيؤدى لسحقنا. وهكذا دعوت للاحتجاج السلمى طالما كان ذلك مؤثرا وليس كمبدأ. وقد تبنت الأغلبية رأيى رغم معارضة مانيلا غاندى القوية.

وتم اقتراح مرحلتين للتحدى يقوم عدد من المتطوعين فى المرحلة الأولى بخرق عدد من القوانين فى المناطق المدنية كأن يدخلوا مناطق محظورة دون تصاريح أو يستعملوا منشآت خاصة بالبيض كالمراحيض ومقصورات القطارات ومداخل مكاتب البريد أو يبقوا فى المدينة بعد ميعاد منع التجول. وعُيّن قائد لكل مجموعة كان عليه أن

يبلغ الشرطة قبل القيام بالعصيان حتى تتم إجراءات القبض بأقل قدر من التشويش. وكان تصورنا للمرحلة الثانية أن تكون تحديا جماهيريا يرافقه إضراب وعمليات فى المؤسسات الصناعية عبر البلاد.

وقبيل الحملة عُقِد اجتماع سمى بيوم المتطوعين وهو يوم ٢٢ يونيو فى دربان وكان ضمن المتحدثين الرئيس لوثولى رئيس المؤتمر فى ناتال ود. نيكر رئيس المجلس الهندى هناك وأعلنا التزامهما بالحملة وكنت أنا المتحدث الرئيسى وكان هناك ما يقرب من عشرة آلاف من الحضور.

وعلى طول البلاد وعرضها فإن الذين قاموا بالتحدى يوم ٢٦ يونيو فعلوا ذلك بشجاعة وحماس وحس بالتاريخ. وبدأت الحملة فى بورت إليزابيث حيث دخلت جماعة محطة للقطارات من مدخل البيض وتم القبض عليهم وكانوا وهم يسيرون ينشدون أغانى الحرية بينما كانت أسرهم وأصدقاؤهم يحيونهم ويتصايحون «فلتعد إلينا إفريقيا».

وطبقا للخطة فقد كان متطوعو المؤتمر سيقومون بدخول منطقة فى شرق جوهانسبرج دون تصريح وفى آخر لحظة اعتذر القس الذى كان سيقودهم لمرضه وهنا أحللت المبجل الهندى نانا سيتا رغم مرضه بالروماتويد وكبر سنه وكنا نريد بمثل تلك القيادة أن نبرهن أننا لسنا فقط مجموعة من الشباب الطائش. ثم بعد ذلك اكتشفت غياب سكرتير فرع المؤتمر فى الترنسفال الذى كان سيرافق نانا سيتا وأحللنا وولترسيسولو محله رغم كونه أحد المنظمين. ثم ذهبت أنا ويوسف

كاتشاليا للمنطقة حيث كنا سنسلم القاضى هناك خطابا نخبره أن خمسين متطوعا سيدخلون المنطقة بدون تصريح. وفى مكتبه وجدنا عددا من المراسلين الصحفيين والمصورين الذين أخذوا فى التقاط الصور.

وسارت المظاهرة بنجاح وحماس ورغم الاستمرار فى إغلاق بوابات الحى فقد انتظر المتطوعون بصبر وأخذوا يطالبون بالدخول بقيادة وولتر. أما الروح المحركة فكان نانا سيتا الذى ظل رغم مرضه يتحرك بين المتظاهرين ويبث فيهم روح الحماس ثم فتحت الأبواب واندفع المتطوعون فورا فى عملية خرق للقانون وحاصرت الشرطة المتطوعين وألقت القبض عليهم كما كان مخططا ونقل المتطوعون إلى مركز الشرطة ووجه إليهم الاتهام.

وفى المساء اجتمعنا نحن قيادة لجنة العمل لمناقشة أحداث اليوم والتخطيط لأسبوع قادم وكان ذلك قرب المنطقة التى كان مقررا لمجموعة أخرى من المتحدين أن يخرقوا قانون منع التجوال والقيام بمسيرة جماعية فى الشارع.

وخرجنا من الاجتماع فى منتصف الليل وفى تلك اللحظة اقترب منى أنا ويوسف كاتشاليا رجل شرطة وكان من الواضح أننا كنا فى طريقنا إلى منزلنا ولم نكن من المتحدين. وألقى القبض علينا وبعد دقائق وجدنا أنفسنا بين أكثر من خمسين من متطوعينا. وكان المكان قذرا وقميئا لكن معنوياتنا كانت مرتفعة ومر اليومان بسرعة.

وخلال الأشهر الخمسة التالية اشترك فى الحملة ٨٥٠٠ شخص من أطباء وعمال ومحامين ومدرسين وقساوسة وطلبة تحدوا القانون ودخلوا السجن. وانتشرت الحملة فى طول البلاد وعرضها ولقيت أصداء إعلامية هائلة وارتفع عدد المشتركين فى المؤتمر الوطنى الإفريقى من ٢٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠.

ورأت الحكومة فى الحملة خطرا على أمنها وعلى سياسة الأبارتايد. وكان العصيان المدنى لا ينظر إليه على أنه من أعمال الاحتجاج بل كجريمة. بالإضافة إلى أن العمل المشترك بين الهنود والأفارقة أزعجهم فقد كان الهدف من الأبارتايد تقسيم المجموعات الإثنية. وعلى ذلك أصر القوميون أن الحملة كانت من تدبير عناصر الشغب الشيوعية وأصدرت الحكومة قانون الأمن العام الذى يخول للسلطة إعلان القانون العسكرى أو حالة الطوارئ واحتجاز الأفراد دون محاكمة وقانونا آخر يجيز العقوبة الجسدية للمتحدين.

وقد حاولت الحكومة أيضا استخدام الوسائل الخبيثة لإفشال الحملة فدسوا الجواسيس والعملاء فى المنظمة ونجحت الشرطة فى اختراق بعض الفروع المحلية والمتحدين. وكان الأفارقة الذين يعملون جواسيس يفعلون ذلك من أجل المال وكانوا يرون فينا تهديدا، ليس لبنيان القوى البيضاء، لكن لمصالح السود لأنهم اعتقدوا أن البيض سيسيئون معاملة كل السود بسبب أعمال الشغب. ورغم ذلك فقد كان هناك عديد من رجال الشرطة السود الذين ساعدونا فى السر وكانوا يقومون بإخبارنا عن ميعاد هجمات الشرطة معرضين حياتهم للخطر.

وفى مايو، وفى منتصف حملة التحدى، صدر قرار «بحظر» چيه. بى. ماركس طبقا لقانون عام ١٩٥٠ الخاص بحظر الشيوعية لمساعدته على تحقيق أهداف الشيوعية.

وكان «الحظر» أمراً قانونياً من الحكومة ويترتب عليه الاستقالة الإجبارية من المنظمة التى يحددونها ومنع حضور الفرد أى اجتماعات. كان أشبه بالسجن المتحرك ولم تكن الحكومة تحتاج إلى أى برهان لحظر أى شخص وكان تجاهل أو خرق أمر الحظر يعاقب بالسجن.

وبناء على توصية ماركس قمتُ بترشيح نفسى لرئاسة فرع الترانسڤال بدلا منه وفزت بأغلبية ساحقة.

وفى ٣ يوليو عام ١٩٥٢ وبينما كنت فى عملى بمكتب المحاماة حضرت الشرطة وألقت القبض علىَّ بتهمة انتهاك قرار حظر الشيوعية. وقامت الحكومة بسلسلة اعتقالات فى أنحاء البلاد وتفتيش المكاتب والمنازل. وتمت المحاكمات فى ٢١سبتمبر وكان ضمن من قدم للمحاكمة د. موروكا وماركس ودادوو وكاتشاليا وكاثرادا. وكان ظهورنا فى المحكمة مناسبة لقيام مظاهرات صاخبة وكان بين المتظاهرين طلبة بيض من جامعة ويتواتر ساند ورجال المؤتمر الكبار من ألكسندرا وطلبة مدارس ابتدائية وثانوية. واكتظت المحكمة نفسها بالجموع الذين أخذوا يهتفون لإفريقيا الحرة.

عكرت خيانة د. موروكا رئيس عام المؤتمر ورمز الحملة صفو المحاكمة.

فقد أذهلنا، بتفويض محاميه الخاص فى حين أن الخطة كانت أن تتم محاكمتنا معا. وفوضنى زملائى للحديث مع موروكا لكننى لم أنجح فى إقناعه بالعدول. وقدم التماسا ذليلا لتخفيف الحكم وعند سماع أقواله تبرأ من المبادئ التى يقوم عليها المؤتمر.وفى ٢ ديسمبر أدانتنا المحكمة بتهمة الشيوعية. وطبقا لقانون حظر الشيوعية كان من الممكن اتهام أى فرد يعارض الحكومة بالشيوعية حتى دون أن يكون عضوا فى الحزب. وكان القاضى عادلا فرغم تهمتنا التى كانت تتراوح ما بين عدم إطاعة القانون والخيانة العظمى فقد اقتنع بأننا كنا دائما ننصح الأعضاء بالعمل السلمى. وحكم على كل منا بالسجن تسعة أشهر مع إيقاف التنفيذ.

لقد ارتكبنا عدة أخطاء لكن حملة التحدى كانت نقطة تحول فى تاريخ المعركة وخرج المؤتمر من الحملة منظمة ذات قاعدة جماهيرية وكوادر ذات خبرة فى العمل تحدت الشرطة والمحاكم والسجون. وزالت الوصمة التى كانت ترتبط بالسجن وكان ذلك إنجازا هاما لأن الخوف من المعتقل يشكل عائقا هائلا لحركات التحرر.

وحررتنى الحملة من عقد النقص والدونية ومن الشعور بالقهر ومن مناعة الرجل الأبيض ومؤسساته. وبلغت سن الرشد كمقاتل من أجل الحرية.■